

الثورة الإيرانية... مفاهيم في الثقافة السياسية

■ رمله عبد الحميد - بحرين

عند الحديث عن الثورة لابد أن يتبادر إلى ذهننا عن ماهية الثورة، وهل الثورة الإسلامية في إيران تحمل طابعا مختلفا؟ وما الذي جعلها تحمل هذا الاختلاف؟؟ كان العالم على موعد لحدث مغاير باعتباره مفاجأة من حيث نوعية التغيير وقوته البعيدة عن الحسابات البشرية، لذا كانت الثورة وتأثيراتها التي حملت مدلولات ذات طابع خاص محمل للدراسات والمقالات التي شغلت الناس لأكثر من ثلاثين سنة.



لم يكن الشاه محمد رضا بهلوي الذي وصل إلى السلطة سنة ١٩٤١ بعد عزل والده، إلا رجلاً مستبداً جعل من إيران ملكاً له، ومبذراً للمال العام، ففي أكتوبر سنة ١٩٧١ وبمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على إنشاء الإمبراطورية الفارسية، أقام حفلاً باذخاً دعي فيه شخصيات أجنبية وعربية، واستمرت هذه الاحتفالات ثلاثة أيام مليئة بالتبذير المفرط، قدم فيها أكثر من طن من الكافيار، وجلب ٢٠٠ طاه من فرنسا لإعداد الولائم، وبلغت التكاليف الرسمية للحفل ما يفوق ١٠٠ مليون دولار، بينما تترجح المحافظات الإيرانية تحت وطأة الفقر المدقع. ولم تجدي الطفرة النفطية في أواخر سنة ١٩٧٤م، إلا مزيداً من التضخم والهدر نتيجة سياسة الشاه التبذيرية وتفشي الفساد فساعد ذلك على زيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء اتساعاً، الأمر الذي نفذ معه صبر الناس تحملاً.

يعتبر عام ١٩٧٨م هو البداية الحركية للثورة، فقد استاءت الجماهير مما أوردته بعض الصحف الرسمية من هجوم وتعدي سافر على آية الله الخميني، فخرجت الجموع الغاضبة في قم استنكاراً على ادعاءات وتجاوزات تلك الصحف، الأمر الذي أدى إلى مهاجمتهم من قبل شرطة الشاه التي أودت بحياة ٧٠ طالباً، وفي صيف العام نفسه خرج العمال الإيرانيون في الشوارع في أعداد حاشدة، في حين أعلن عمال آخرون الإضراب، ولكي يحرف الشاه مسار الثورة وتلاحمها نفذ البوليس السري السافاك في أغسطس حريق سينما ريكس الذي حصد أكثر من ٤٠٠ شخص ماتوا حرقاً في هذا الحريق الضخم، وفي اليوم التالي تجمع ١٠,٠٠٠ من أقارب القتلى والمتعاطفين لتشيع جماعي حاشد ومظاهرة تنادي (ليحرق الشاه).

مع حلول سبتمبر، كانت البلاد مزعزعة على نحو شديد، واشتدت المظاهرات الحاشدة

ففرض الشاه الأحكام العرفية، وحظرت كل التظاهرات لكن في ٨ سبتمبر ١٩٧٨، خرجت مظاهرة حاشدة للغاية في طهران، إنها المظاهرة التي حولت ذلك اليوم إلى ما بات يعرف باسم الجمعة السوداء، وظهرت الحكومة فيه بصورتها الوحشية الدموية مما أدى إلى إضراب عام في تشرين الأول/أكتوبر شل الاقتصاد والصناعات الحيوية التي أغلقت أبوابها و"حسمت مصير الشاه". لقد بلغت الاحتجاجات ذروتها في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٨، خرج إلى شوارع طهران نحو مليوني شخص ملثوا ساحة آزادي (شاهياد) مطالبين بإزالة الشاه وعودة الخميني. وأمام الضغط الشعبي وفي ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٧٩ غادر الشاه، وظهرت مشاهد الابتهاج العفوي، ودمرت خلال ساعات "كل رموز سلالة بهلوي"، و في ١ شباط/فبراير ١٩٧٩، عاد الخميني إلى

■ الحسابات الإلهية:

قال تعالى في محكم كتابه الكريم (فَلَمْ تَقْنُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الأنفال/ ١٧

الحسابات الممكنة هي الرأجة لدى الرأي العام قبل الثورة، فلم يكن للحسابات الإلهية أي اعتبار، لكن هذه الثورة أوجدت على أرض الواقع معجزة إلهية بشكل واضح وجلي، ففي هذا الصدد يشير الإمام الخميني (قدس) بقوله: "فليس هناك من شك بان هذه الثورة حظيت بتأييد من قبل الله سبحانه وتعالى، أن تحقيق ثورة عقائدية وإلهية تسير في طريق استقرار العدل في عالمنا المعاصر تعتبر بحق معجزة إلهية. إن الحسابات هنا هي حسابات إلهية، إنها يد الله ومشيتته التي أبطلت جميع الحسابات المادية."

ويضيف محمد مهدي الأصفي في كتابه في علاقة الثورة بالله بقوله: (كنت أتوخي أن افهم رأي المثقفين الواعين المسلمين في خضم الأحداث، فلم أجد إلا قلة قليلة كانت واثقة بالنصر، وأكثر من رأيت من المثقفين كانوا يرون ان الورقة الراحلة لأمريكا على كل حال، وان نتائج هذه الحركة لا تتخطى سقوط وزارة وقيام أخرى، وان هذه الثورة لا يمكن ان تتجاوز حدود الوفاق الدولي القائم بشأن إيران، وأن أمريكا لن تتخلي عن إيران وعن النظام الملكي، وان القضية لا تتجاوز محاولة أمريكية لتأديب الشاه وتحجيم سلطاته، وأن رأس الحبل بيد اليسار والمؤمنون هم الضحايا، وان مراجع الدين ينقصهم الوعي السياسي وقضيتهم خاسرة بالتأكيد، وأن ثورة الشارع لا يمكن أن تزعزع أركان النظام الشاهنشاهي العتيد، وان هناك لعبة خفية تكشفها الأيام فيما بعد، وان أمريكا لا يمكن ان تسكت عن آبار النفط وقواعدها العسكرية الضخمة في إيران، وان روسيا لا يمكن ان تسكت عن الغاز مصالحها في إيران) إنها الفكرة التي غيرتها الثورة الإيرانية بان النصر وليد الحسابات الإلهية.

■ جماهيرية الثورة المستضعفون في الأرض:

كيف ينصر الله الفئة القليلة الفقيرة الضعيفة على الفئة الكثيرة الفنية القوية، على خلاف ما يتصوره الناس في موازين القوى والمعادلات السياسية والحسابات الفكرية؟ انه السؤال الذي طالما سألته الناس مراراً، إنها المشيئة الإلهية القاطعة، إنها الهبة التي منّ بها الله على المستضعفين من الرجال والنساء والأولاد، وتحويل القوة والسلطان إلى هؤلاء المستضعفين من أيدي الجبابرة والطغاة، وتمكين الأرض لهم (ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) القصص/ ٦٠-٦١

تعتبر الثورة الإيرانية أكبر ثورة شعبية شهدتها التاريخ المعاصر قياساً بالثورة الفرنسية الكبرى والثورة الروسية البلشفية، إذ كانت أكثر حضوراً للجماهير في الاعتصامات والتظاهرات. وكان ذلك من نتاج الوعي السياسي للخط الذي لم يكن مقتصرًا على إدارة النخبة المثقفة فقط كما يحصل عادة، إنما نزل هذا الوعي إلى الشارع، وتمكن من عقلية الجماهير، فمنهم صلابة وقوة، إن التصور الغربي للمجتمعات البشرية هو إن حالة الغوغائية هي الحالة الطبيعية المسيطرة على الأوساط الشعبية والجماهير، فالعقل الجمعي هو الذي يوجه التجمعات البشرية وليس التفكير الوضعي والفهم الدقيق والتشخيص الصحيح للمجتمعات، فحالة الغوغائية تكون هي الحالة الغالبة، وليس الأمر كذلك في المجتمعات الموجهة، وقد لاحظنا في تيار الثورة الإسلامية ان الجمهور استطاع بفضل التوجه العلمائي المستمر ان يتخلص من حالة الغوغائية ويخضع في تحركه السياسي والجهادي للتشخيص الصحيح والتفكير الموضوعي ويتناول القضايا السياسية والاجتماعية المعقدة بحس

طهران، وأصبح دون منازع قائد الثورة بعد أن كان ملهمها.

لقد كان للثورة الإيرانية صدى كبير على الصعيد الإقليمي، والعربي منه خاصة، اذ كانت بمثابة إعلان على قدرة الشعوب المسلمة على الوصول إلى السلطة السياسية حتى في البلدان التي تنعم بالمساندة الأمريكية بالدرجة الأولى. لقد أوجدت الثورة الإيرانية في عالمنا المعاصر ثقافة مغايرة في الأدب السياسي العالمي لما كان سائداً، لقد تضمنت هذه الثورة ثورة في القيم والأفكار والتصورات، لقد تمكنت هذه الثورة من اقتلاع جذور الكثير من الأفكار والتصورات والروى التي ترسبت منذ فترة طويلة في مجتمعنا الإسلامي والتي بثها الاستعمار الغربي بكل منافذه، لذا استطاعت الثورة أن تستبدل هذه المفاهيم إلى مفاهيم نابعة من صلب الإسلام، مفاهيم هي أقرب ما تكون لمفاهيم قرآنية.



- فريد هاليدي أستاذ العلاقات الدولية في جامعة لندن فيقول في مقدمة كتاب ألفه عن إيران: "إن الثورة الإسلامية هي بحق من أعظم الثورات في التاريخ. ونحن جميعاً على علم بأن هذا الحدث العظيم كان بتأثير عظمة شخصية الامام الخميني (قدس) وأن يده القويتان وقيادته كانت هي التي أثارت هذه الأمواج البشرية الهائلة".

- المفكر والخبير الفرنسي البارز في علم المجتمع ميشيل فوكو يشير في تأليفاته إلى رحلة قام بها إلى إيران في فترة ذروة أحداث الثورة عام ١٩٧٩ "أن السمة البارزة التي يتميز بها الفكر السياسي للإمام الراحل هي ارتكازه على الهوية الدينية حيث عرض فكره ضمن إطار يتجاوز إطار العلمانية الغربية، فالثورة الإسلامية الإيرانية تحدثت قرنين من سلطة فكر سياسي ذو جذور تعود إلى بضعة مئات من السنين.. وإن هذه الثورة لديها الكثير لتقوله، وإن ذلك يعد السمة البارزة التي يتميز بها الفكر السياسي للإمام الخميني (قدس)".

إن الامام (قدس) وبناء على هذا الفكر السياسي حرك عجلة أعظم ثورة اجتماعية في القرن العشرين، والتي يعتبرها المحللون الدوليون أنها لا يمكن تقييمها ضمن إطار المعايير التي يتم على أساسها تقييم باقي الثورات الكبيرة في العالم. إن ترابط الثورة الإسلامية الوثيق مع أفكار وشخصية الامام الخميني (قدس) الشاملة هو العامل الذي يؤدي إلى تمييز هذه الثورة عن باقي الثورات الإسلامية الكبيرة في العالم، التي حدثت في القرن العشرين، فخط الإمام في مسيرة الثورة كان من أعظم مكاسب هذه الثورة المباركة، هذا الخط الذي تبنته الثورة وسارت عليه عند أصوله وجذوره إلى دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ليس فيه شيء جديد إلا ما يتعلق بظروف التطبيق والعمل والثورة تتحرك على خطى أولئك الصديقين الذين حملهم الله تعالى رسالته على خطى إبراهيم ونوح وموسى وعيسى، وخطى رسول الله (ص) و أهل البيت (ع).

سياسي مرهف وتشخيص دقيق وتفكير موضوعي، فتحركت الجماهير بمسيرات ضخمة بعد صلاة الجمعة وهو ينادون (لن نتركك وحدك يا أمام كما ترك أهل الكوفة الحسين (ع) في يوم الطف) واستطاعت هذه الجماهير ان تعيد المياه الى مجاريها وتطرد هذه الحفنة من كراسي (لا)، لأنهم آمنوا بأنهم المستضعفون في الأرض الذين وعدهم الله، لذا عمل قياديو الثورة وعلى رأسهم الإمام الخميني تمكين المستضعفين في الأرض وجعلهم أصحاب القرار فيما يريدونه، فجري الاستفتاء على (الجمهورية الإسلامية: نعم أو لا) في ابريل ١٩٧٩. وقد أدلى ٩٨٪ من جماهير الشعب بأصوات نعم للجمهورية الاسلامية.

■ الاستبداد والاستكبار

لقد عززت الثورة فكرة محاربة الاستكبار المنبثق من المفاهيم القراء نية (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) العارف/٧٦
فثورة شباط (فبراير) الإيرانية لم تسقط نظام الشاه محمد رضا بهلوي فحسب بل أسفرت عن انهيار أركان الاستبداد المتمثل بالقوة المطلقة للملوك حيث كان نموذجاً بارزاً للسلطة المطلقة للحاكم الفرد. لكن الاستبداد ليس تركيباً ميكانيكياً هشاً ينمحي اثر انهياره بضربة ثورية سريعة بل هو ثقافة وخصوصيات نفسية مترسخة في الأذهان ولكي يتحول إلي منهج آخر مغاير يحتاج إلى جهود سياسية وثقافية مضنية. لذا اظهر الإمام ثورة رسخ فيها مفهوم ضد الاستكبار والمستكبرون في الأرض المستكبرون لكي يتمكنوا من الاستكبار في الأرض وفي حياة الناس واستضعاف عباد الله لابد لهم من تقييد الإنسان بعد أن يتحرك او يعمل بطلاقة بحرية، لذا جاءت الثورة بمنهج إن مطالبة الفرد بالتغيير مقرون فلا بد ان يتخلص من قيد المستكبرين على رجليه ويديه ومن كل ثقل على ظهره.

■ شعار الله أكبر

ارتبطت الثورة بشعار الله أكبر فقد جعلت من هذا الشعار في كل حركاتها وسكونها أهازيجها وصمتها دمهًا وثورتها راية تلوح به حيث تسير، لقد أدركنا ويسرعة أن الله أكبر باللغة العربية تعني أن الله أكبر من كل شيء في الوجود. فهذا الشعار الذي يمنح المؤمنين القوة والعزة والصمود والاستقامة والثبات في ساحات المعركة وهو يعني ان الله أكبر من أي قوة فهو اقدر من أي طاغوت مهما بلغت قدرته وشوكته وتضاءل امام هذا الشعار قوة الطغاة وشوكتهم، لذا عززت الثورة هذا الشعار الذي أصبح شعار الثوار والمستضعفين في الأرض لأنه الشعار الحقيقي الذي يزعم المستكبرون في الأرض.

■ الإمام والثورة

لم تكن هذه الثورة يقودها عمال، ليبراليون مثقفون، أو شباب طلاب إنما قادها علماء دين فعالين الدين الذي كان يجمع الناس حول المسجد، ويبث فيهم روح العمل والجهاد، ويعطيهم درساً في الإيمان والعمل في أقصى البلاد، وفي قرية صغيرة مجهولة من العالم الإسلامي له حصة ودور في وضع هذه الثورة، لذا فان الإمام والثورة، ظاهرتان لا يمكن الفصل بينهما، ونورد هنا بعض الأدلة التي تغنيها عن الشروح ممن عاصروا الإمام والثورة عن قرب باختلاف عقائدهم وتوجهاتهم:

- سماحة قائد الثورة السيد علي الخامنئي: "إن الثورة الإسلامية والامام الخميني (قدس) ظاهرتان لا يمكن الفصل بينهما، فمن غير الممكن تحليل الثورة الإسلامية بدون التعرف على شخصية قائدها العظيم".

- صحيفة الغارديان البريطانية "إن دور آية الله (الإمام) الخميني (قدس) في الثورة العظيمة التي حصلت في إيران كانت محورية ومهمة وما من شك في أن آية الله كان الحجر الأساس لهذه الثورة".